

الابستمولوجيا الكانطية "المشروع النقدي" *Kantian Epistemology: "the criticism project"*

زيات فيصل، جامعة العربي التبسي - تبسة (الجزائر)، fayssal.ziat@univ-tebessa.dz
تاريخ الإستلام: 2022 / 01 / 10 تاريخ القبول: 2022 / 06 / 02 تاريخ النشر: 2022 / 06 / 14

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى مقارنة المسألة الابستمولوجيا الكانطية من خلال النقد الابستمولوجي للعقل، والتي انشغلت بالتطلع نحو امتصاص غلواء العقلانية الديكارتية والتجريبية، ووضعت في اعتبارها هدفا مهما وهو دمج معطيات هذه بتلك والخروج بتركيب جديد. هذا أهم ما جاء به كتاب "نقد العقل الخالص" وهو من أهم ما كتب في الفلسفة على الإطلاق، فهو يشكل منعطفاً في تاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة. مشروع ضخّم تناول ميدانين أساسيين من ميادين الفلسفة وهما ميدانا: نظرية المعرفة والميتافيزيقا.

وتوصلت الدراسة إلى أن خصوصية النقد عند كانط هو أنه أخذ صورة مشروع يتناول جميع زوايا التفكير البشري، هذا ما جعله يأتي بأراء جديدة في نظرية المعرفة والعلم عموماً. وأن المنهج النقدي الذي اتبعه كانط كان له أثر كبير على الفلسفة إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: النقد الابستمولوجيا؛ المعرفة؛ العقل؛ التجربة؛ الميتافيزيقا.

Abstract:

The study aims to approach the issue of Kantian epistemology through the epistemological criticism of the mind, which is preoccupied with the aspiration towards absorbing the excess of Cartesian rationality and empiricism, and has taken into account an important goal, which is to combine these data with the previous and to come up with a new structure. This is the most important thing that came in the book "Critique of Pure Reason" and it is one of the most important books ever written in philosophy, as it constitutes a turning point in the history of modern and contemporary philosophy. A project dealt with two main fields of philosophy: epistemology and metaphysics.

The study concluded that the specificity of criticism according to Kant is to take a picture of the different sides of human thought, and this is what made Kant come up with new opinions in epistemology and science. And that the critical method that Kant followed had a great impact on philosophy to this day

Keywords: Criticism Epistemology, Knowledge, Mind, Experiment, Metaphysics.

1. مقدمة

تطورت الفلسفة الغربية بعد بيكونو ديكارث في اتجاهين أساسيين أولهما : الاتجاه التجريبي الذي أعطى للحواس قيمتها المعرفية، وأقر الاستقراء التجريبي كمنهج للعلوم الطبيعية . وثانيهما: الاتجاه العقلي الذي أرسى دعائمه ديكارث وتطور على يد الكثيرين من تلامذته والمعجبين بفلسفته رغم الاختلاف في الرأي بين أنصار الاتجاهين، بل وبين أنصار كل اتجاه منهما، إلا أن القاسم المشترك الذي جمع فلاسفة هذا العصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر هو اعتزازهم الشديد بقيمة العقل وقيمة العلم، وإيمانهم الذي لا يتزعزع بأن التقدم الإنساني مرهون بمدى تقدم المعرفة العقلية والعلمية وقد لاحظ كانط (الذي عاش فيما بين عامي 1724 و1804) على معاصريه أمرين هامين أولهما: مغالاتهم في إعلاء من قدرة العقل حيث تصوروا أن بإمكان العقل الإنساني أن يصل في معارفه اليقينية إلى ما لا نهاية له، وأن بإمكانه تجاوز هذا العالم المحسوس ليصل في معارفه إلى ما وراء هذا العالم وثانيهما:

أنهم نظروا إلى العالم الطبيعي علماً يتغير والمادة المحسوسة فقط، وأنه لا يشتمل على الكليو الضروري وهما الصفتان اللذان يتميزان المعرفة العقلية.

ولقد بذل كانط جهداً كبيراً في كتابه « نقد العقل الخالص » في بيانها فتهدينا الأمرين وفي التأكيد على أن العقل لا يتجاوزها ولا يغايب اليقين ووضاعتا حقيقة (النشر، 1998، صفحة 147).

إشكالية الدراسة:

ولقد كان السؤال الذي كثيراً ما راود كانط، وجعله يقدم فلسفته النقدية التي غيرت وجه الفلسفة في العصر الحديث، ووضعت العقل لأول مرة تحت مجهر النقد، التي تأتي هذه الورقة البحثية للإجابة عليه على النحو الآتي:

إلى أي حد يمكن أن نثق في العقل ونطمئن إلى قدرته في الوصول إلى يقين يشبه اليقين العلمي في المعارف الرياضية والفيزيائية؟ وإلى أي مدى يستطيع عقلنا الوصول إلى إدراك حقيقة الكون والطبيعة والإنسان؟ وما هي أدوات المعرفة الصحيحة؟ وما قيمة هذه الأدوات وأدوارها في تحصيل المعرفة الصحيحة؟ وكذلك يتساءل كانط: كيف تكون الفلسفة أو المعرفة الفلسفية ممكنة؟ هذه الأسئلة يجب عنها في كتاب «نقد العقل المحض» في استخدامه النظري، ولكن كانت المشكلة العامة للعقل المحض كالتالي: كيف يمكن للأحكام التأليفية القبلية أن تكون؟ أو كيف تكون الأحكام الأولية التأليفية ممكنة؟

هدف الدراسة:

والهدف من هذا البحث ليس مجرد عرض للفلسفة النقدية الكانطية وتجاوزها للفلسفات التقليدية، بل إننا نصبوا إلى تبيان أهمية وطبيعة المنهج النقدي الكانطي وانعكاسه على العلوم وعلى تقدم المعرفة الإنسانية، من خلال دراسة ابستمولوجية.

أهمية الدراسة:

يستمد موضوع هذا البحث أهميته من خلال معرفة المشروع الإبستمولوجي الكانطي، المتمثل في النقد الابستمولوجي للعقل، وذلك بالتطرق إلى مختلف أدوات المعرفة التقليدية التي كانت تعتبر صحيحة ويقينية وتجاوزها ابستمولوجياً، من خلال سؤاله في كتاب "نقد العقل الخالص" ماذا يمكنني أن أعرف؟ وبيان

إمكانية المعرفة من خلال طابعها التركيبي القبلي، الذي يتطرق ضمنيا لمسألة الميتافيزيقا، ولماذا فشلت في أن تكون علما دقيقا كما هو الحال في الرياضيات والفيزياء.

منهج الدراسة:

لقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي وهذا لتوضيح خصائص المدرستين العقلية والتجريبية، لكي يتسنى لنا تجاوزها مع المشروع الكانطي. إضافة إلى المنهج النقدي التحليلي، الذي يقوم على جمع المعلومات وتحليلها وقراءتها قراءة نقدية ابستمولوجية، من أجل إدراك الغامض من الأفكار وإظهار التناقض الذي تحتويه. ومن ثم استخلاص النتائج.

أولا: المشروع النقدي الكانطي

يعتبر كانط أول فيلسوف أسس لمشروع منهجي نقدي فلسفي جديد وفريد من نوعه قائم على معطيات وحقائق القاموس الفلسفي. حيث استخدم كانط النقد من أجل تمحيص الأفكار والتدقيق فيها من خلال الملاحظة والاطلاع الشامل على كل جوانبها، ويبدو أن كانط كان مدفوعا لنقد الظروف التاريخية التي تمر بها أوروبا في جميع الميادين منها السياسة والاجتماعية... وقد تجسد مشروع النقدي في كتبه الرئيسية: "نقد العقل المحض"، و"نقد العقل العملي"، و"نقد ملكة الحكم" (عواضة، 2012، صفحة 243). وشرح في كتاب "نقد العقل المحض" أن الانتقاد عملية تحقيق لأسس وحدود المعرفة البشرية، وهو امتداد لقدرة العقل البشري على التعامل مع الميتافيزيقا.

1. نقد العقل وطبيعة المعرفة

لقد كان عصر "كانط" عصرا مجيدا، ازدهرت فيه المعارف والآداب وعاش فيه رجال مرموقون ناهون مثل "هاردر" و"جاكوبي" و"جوته" و"شيلر". وقد ألم كانط بمجمل الثقافة الألمانية في عصره وواصل تأملاته بصحبة ثلاثة من المفكرين من غير الألمان هم: نيوتن وهيوم وروسو وجميعهم أثروا فيه أبلغ تأثير، فلا غرابة أن تصبح خطوات "نيوتن" و"هيوم" و"روسو" مادة للتأمل وأداة للبحث الميتافيزيقي (أمين، 1989، صفحة 276).

كان كانط ذو نزعة عقلية تامة، ولهذا أحب العلوم الدقيقة، أعني الرياضيات والعلوم الطبيعية القائمة على التجربة والملاحظة مثل الفيزياء والفلك ونشأة الكون، لكنه اتخذ منها نقطة انطلاق لتكوين نظرة شاملة في الكون أي نظرة فلسفية تنتظم المعرفة البشرية بعامة.

لذلك رأى كانط في سنة 1770 أنه لا بد من الفحص عن العقل المحض، لبيان طبيعة المعرفة النظرية والمعرفة العلمية من حيث هي عقلية فقط، فأكب على هذا الفحص ولم يفرغ منه إلا في سنة 1781 حينما أصدر كتابه الرئيسي «نقد العقل المحض» ومعنى نقد العقل، هو الفحص عن قدرة العقل بوجه عام فيما يتعلق بكل المعارف التي يطمح إلى تحصيلها مستقلا عن كل تجربة، والعقل المحض هو العقل وهو يفكر غير مستعين بالتجربة، فكلمة "محض" يقصد بها: المحض من التجربة والملاحظة أي الخالي من كليهما، بمعنى العقل الذي يعتمد على ذاته فقط دون الاستعانة بالتجربة والملاحظة. فنقد العقل المحض هو الفحص عن نظام الأسس القبلية ومقتضيات العلم السابقة التي بفضلها تتم المعرفة العلمية، والمنهج الذي يستخدمه العقل في نقده لنفسه هو المنهج المتعالي الذي بموجبه يتبين ما في العقل المحض من شكوك وقوانين. والمتعالي هو المتعلق بشروط إمكان التجربة وبقيمة ما، هو قبلي بالنسبة على التجربة وموضوعاتها، والمتعالي هو السابق على التجربة ولكنه داخل نطاق العقل. والفلسفة المتعالية هي علم إمكان المعرفة التركيبية القبلية إنما لا تبحث في الموضوعات بل في الأصول التي تنشأ المعرفة قبليا وحدودها. ويمكن أيضا تحديد الفلسفة المتعالية بالنقد باستبعاد كل الميتافيزيقا... (Lacharité، 1997، صفحة 15)

يتفرع نقد العقل المحض إلى:

- _ الاستطبيقا الترسندالية أو الحساسة المتعالية.
- _ المنطق الترسندالي أو المنطق المتعالي ويشمل:
- (أ) التحليلات الترسندالية أو التحليلات المتعالية.
- (ب) الديالكتيك (المتعالي) الترسندالي أو المتعالي.
- _ تعليم المناهج الترسندالية أو علم المناهج المتعالي.
- أما الحساسة المتعالية فهي علم كل مبادئ الحساسة القبيلية (أي السابقة على التجربة). والتحليلات المتعالية هي العلم الباحث في عناصر المعرفة المحضة للذهن والمبادئ التي بدونها لا يمكن التفكير في أي موضوع، أي هو تحليل لمجموع معرفتنا قبلياً إلى عناصر معرفة الذهن المحضة.
- ولما كان الديالكتيك هو منطق «الظاهر» فإن الديالكتيك المتعالي هو العلم الباحث في تجاوز العقل لحدود التجربة، من أجل تحديد الموضوعات بوجه عام، إنه فن سوفسطائي يكشف لنا عن العلامات والقواعد التي بها نتعرف سوء استعمال العقل لمعايير الحقيقة وفائدته هو تطهير الذهن. وعلم المناهج المتعالي هو علم تحديد الشروط الشكلية لنظام كامل للعقل المحض.
- يعرض كانط نقده الابستمولوجي لنظرية المعرفة في كتابه "نقد العقل الخالص" من خلال سؤاله ماذا يمكنني أن أعرف؟ محاولاً بذلك بيان إمكان المعرفة من خلال طابعها التركيبي القبلي، الذي يتطرق ضمناً لمسألة الميتافيزيقا ولماذا فشلت في أن تكون علماً دقيقاً كما هو الحال في الرياضيات والفيزياء.
- يتخذ تصور كانط للمعرفة طابعاً نقدياً، وهو نقدي لأنه ينتقد كلا من الأساس القبلي والتجريبي للمعرفة، كونها لا يعبران إلا عن دوغمائية فلسفية حينما يؤسس الواحد منهما للمعرفة في استقلال ونفي تام للآخر. لذا فإن أعمال النقد في سؤال المعرفة ينتهي بنزع وهم الإطلاقية الكامن في العقل والتجربة. ومن ثم يجعل المعرفة قائمة على نقد العقل من جهة، ونقد التجربة من جهة أخرى، وهو ما يعبر عنه بالقول: "تبدأ معرفتنا مع التجربة، ولا ريب في ذلك البتة لأن قدرنا المعرفية لن تستيقظ إلى العمل إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا فتسبب من جهة أخرى نشاط الفهم عندنا إلى مقارنتها وربطها أو فصلها. وبالتالي إلى تحويل خام للانطباعات الحسية إلى معرفة بالموضوعات تسمى التجربة. إذن لا تتقدم أي معرفة عندنا زمنياً على التجربة، بل معها تبدأ جميعاً". إن جعل التجربة المصدر الأول للمعرفة من الناحية الزمانية هو نقد ضمني للأصل العقلي للمعرفة الذي يدعي وجود أفكار فطرية سابقة على التجربة، لكن معنى النقد لا يكتمل إلا بنقد الأصل التجريبي كذلك. "فعلى الرغم من أن كل معارفنا تبدأ بالتجربة فإنه مع ذلك لا ينبثق بأمرها من التجربة لأنه من الجائز أن تكون معرفتنا التجريبية عينها مركبة مما نتلقاه من الانطباعات الحسية، ومن قدرتنا بالمعرفة (المحفزة وحسب الانطباعات الحسية) يصدر تلقائياً، ويشكل إضافة لا نفرقها من المادة الأولية قبل أن يكون طول التمرن قد نهنا وجعلنا ماهرين في تمييزها منها" (الكديوي، 2020، الصفحات 59-60).
- من الواضح إذن أن كانط لا يقصر المعرفة على التجربة وحدها إذ أصبح مجرد شرط للمعرفة وليست أصلاً لها، فقيام المعرفة يقتضي الاستناد إلى شرط قبلي يضيف على المعرفة طابع الضرورة، وبالتالي فإن المعرفة بموجب النقد تتأسس على أصل مزدوج (العقل - التجربة) يتضمن مبادئ قبيلية بعدية في الآن نفسه.
- إن التأسيس النقدي للمعرفة القصد منه بيان إمكان قيام المعرفة من حيث إنها ضرورية ويقينية وذات طابع كلي، وهو ما يتناوله في تصوره للمعرفة التي تنحل إلى ثلاث ملكات: "الاستطبيقا الترسندالية - المنطق الترسندالي - الديالكتيك الترسندالي". (الكديوي، 2020، صفحة 60)
- يعرف كانط الفلسفة على أنها "علم العلاقة بين كل المعارف والغايات الجوهرية للعقل البشري". أو "الحب الذي يمكنه الكائن العاقل للغايات العظمى للعقل البشري" (دولوز، 1997، صفحة 05). وتشكل غايات

العقل العظمى منظومة الثقافة ونحن نتعرف في هذه التعريفات، على صراع مزدوج: ضد التجريبية، وضد العقلانية الدوغمائية.

وقد وجه كانط نقداً مزدوجاً للعقل باعتباره آلة المعرفة والمعارف التي اتصلت به تجريبية كانت أو عقلية، أما فيما يخص جانب نقد العقل:

فالعقل هو ملكة المعرفة العليا، هو ملكة المبادئ وملكة استنباط الخاص من العام. وهو لا يتناول الموضوعات مباشرة بل يتناول فقط الذهن ولا يخلق التصورات من الموضوعات بل يقوم فقط بترتيبها ويعطيها وحدتها. وبوصفه "ملكة المبادئ" فإنه يستبقي مشكلة القيمة الترنسندنتالية أو القيمة الكلية بمصطلحات الأفكار الثلاث (مصطلح يتناسب مع تصور أفلاطون للمثل المتعالية الخالصة). وهي: النفس، والكون، والله. (كليوفسكي، 2002، صفحة 53)

أما الذهن فهو إنتاج الامتثالات، أو ملكة تلقائية المعرفة وهو ملكة التفكير في موضوعات العيان الحسي (بدوي، 1977، الصفحات 273-274). وعلى هذا فكل معرفة تبدأ بالحواس أولاً ثم تنتقل إلى الذهن، وتنتهي في العقل، ثم في ضوء ذلك يضع كانط تفريقه الحاسم بين الذهن باعتباره «ملكة القواعد» والعقل باعتباره «ملكة المبادئ» فالعقل لا يرتبط مباشرة بالتجربة ولا بأي موضوع كان، وإنما يتعلق بالذهن من أجل أن يزدنا قليلاً بالتصورات والمعارف المختلفة، ومن غير هذا التمييز تكون الميتافيزيقا مستحيلة على الإطلاق (كانط، 1967، الصفحات 149-150).

وخصائص العقل هذه:

_ إنه موجه نحو ما هو عال، أي نحو ما يقع خارج نطاق التجربة الحسية.

_ أنه ينشد الكلية والشمولية.

_ إن المعرفة التي يدعيها لنفسه هي معرفة عن طريق المبادئ. وأخيراً لما كان العقل لا يُعنى إلا بالذهن وأحكامه فليس له علاقة مباشرة بموضوعات العيان الحسي، فتصورات العقل لا يناظرها أي موضوع حسي (ابراهيم، 1997، الصفحات 87-88).

لقد رأى كانط أن الموقف حيال أو اتجاه نظرية المعرفة كان موزعاً بين التيارين الرئيسيين في الفلسفة الغربية:

1.1 التيار العقلي: الذي يضع العقل مصدراً لكل معرفة باعتباره ملكة حائزة على كل شروط المعرفة، وهذا التيار له جذر عميق في تاريخ الفكر الفلسفي يعود إلى أفلاطون ثم نظم أطره كل من ديكارت ومضى فيه اسبينوزا وليبنتز إلى أقصى أبعاده الميتافيزيقية.

2.1 التيار التجريبي: الذي استثمر كشوفات العلم، ورأى أن التجربة الحسية أساس كل معرفة أو كل الحقائق والتصورات، وقد نظم إطاره الفلسفي كل من لوك وهيوم.

ومن ناحية أخرى رأى كانط بأن المعرفة الرياضية تتقدم باطراد ويقين لهذا تساءل: هل يمكن للميتافيزيقا أن تصبح علماً قائماً بنفسه على أسس يقينية، وأن تتقدم باستمرار كما هو الشأن في الفيزياء والفلك والرياضيات؟

ومن هنا كان كتاب «نقد العقل المحض» بحثاً في الميتافيزيقا لأنه بحث في نظرية المعرفة وفيه يحاول بيان فساد كلا التيارين: النزعة العقلية والنزعة التجريبية.

فأولاً: تجاوزت حدود العقل وطاقاته، فادعت إمكان الوصول إلى إثبات كيانات لا يمكن بطبعها أن تكون موضوعات للتجربة مثل: الله، الحرية الإنسانية، خلود النفس،... الخ.

والثانية: قصرت باقتصارها على معطيات التجربة الحسية ولم تدرك وجود مبادئ متعالية، هي الإطارات التي لا بد لمعطيات الحس من الدخول فيها كي تصبح مدركات. وتحقيقا لهذا الهدف اتجهت فلسفته إلى «تحليل طاقات العقل وإمكاناته بغية الوصول إلى القواعد العاملة التي تضبط كل علم وكل أخلاق» (كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، 2009، صفحة 19). وفي خضم كل هذا ظهر كانط ناقدا من جهة، وساعيا لتكوين عقلانية جديدة تمتص غلو التيارين المذكورين، وتقدم فلسفة عقلانية نقدية ترث إنجازات الفكر الفلسفي (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، صفحة 273).

وبإزاء هذا التعارض القائم في بيئة الفروض والنتائج، اكتشف كانط وجود أحكام ليست تجريبية ولا تحليلية ودعاها باسم: الأحكام التركيبية القبلية، فهي تركيبية: لأن محمولاتها غير متضمنة في موضوعاتها. وهي قبلية: لأنها ليست مستمدة من التجربة، فمثلا: $7+5=12$ هنا حكم تركيبية لأن 12 غير متضمنة في 7 و5، وهنا حل كانط مشكلة جديدة ظهرت له وهي كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟ وتمثل الحل بأنها تكون ممكنة إذا أمكن بيان أن المعرفة الإنسانية تعتمد على تصورات ليست تجريبية الأصل، وإنما أصلها في الذهن الإنساني بوتر.

صحيح أن كل معرفة تبدأ بالتجربة ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها تنشأ عن التجربة، ذلك أن التجربة تقدم معطيات منفردة مختلفة مثل الألوان والأصواء والليونة... ولكن العقل بما ركب فيه من إطارات مغروزة في طبيعته هو الذي يؤلف بينها ويرتها ويحولها إلى تصورات لموضوعات. إن العقل يتلقف الانطباعات الحسية منفصلة لا رابط بينها ولا ترتيب لكنه ما يلبث أن يعمل فيها عمله فيرتها ويوحدها ويربط فيما بينها وإلا ظلت خليطا غامضا غير متميز (ابراهيم، 1997، صفحة 93).

إن الحل فقد وجده كانط في التحول الكوبرنيكي للميتافيزيقا. إن المعرفة لا تتجه إلى المعرفة. عبر هذه المثالية المتعالية رفع كانط العقلانية والتجريبية في الإشارة إلى محطات المعرفة: يقول كانط: "هكذا تبدأ كل معرفة إنسانية مع المشاهدة، من ذلك تنطلق بالمفاهيم لتنتهي بالأفكار" (فرانز، 2007، صفحة 137). ورأى كانط أن مشكلة الميتافيزيقا هي مشكلة أي علم، أعني: كيف يمكن أن تكون مبادئها ضرورية كلية من ناحية ومن ناحية أخرى تتضمن علما بالواقع وتزود الباحث بإمكان المزيد من المعرفة أكثر مما يعلم؟ أو بصيغة أخرى كيف يمكن للميتافيزيقا كعلم أن تكون؟ ورأى كانط أن الجواب على هذا السؤال يكمن في الأحكام التركيبية القبلية.

ومشكلة الأحكام التركيبية القبلية تظهر في ثلاثة ميادين: في الرياضيات والفيزياء والميتافيزيقا، ومن هنا انقسم نقد العقل المحض بحسب هذه الميادين الثلاثة إلى: الحساسية المتعالية أولا: وفي هذا الميدان يبين أن الرياضيات تتناول بالضرورة الزمان والمكان، وهما شكلان أو صورتان أوليتان حسيتان ضروريتان للمعرفة الإنسانية (أمين، 1989، صفحة 72).

وثانيا التحليلات المتعالية: وهي الجزء الأساسي في هذا الكتاب وأصعب أقسامه، وثالثا الديالكتيك المتعالي: وفيه يفحص عن الأحكام التركيبية القبلية في الميتافيزيقا تقطع نفسها عن التجربة الحسية لمحاولتها تجاوزها؛ ولهذا السبب تعجز عن الوصول إلى حكم تركيبية قبلي حقيقي.

طالما كانت المعرفة الاختبارية مستمدة من التجربة فإنها تفتقر إلى الضرورة والكلية، وعليه فلا تكتفي أنها أساسا للعلوم، ولذلك كان لزاما على كانط أن يبحث عن وسيلة ما لكي يخلع على هذه المعرفة الاختبارية الضرورة والكلية، وذلك بردهما إلى ملكة المعرفة القبلية عندنا، فيجعل قضايا العلم تستند إلى مبادئ تركيبية وقبلية في آن واحد. وقد وجد كانط أن العلم الطبيعي يعتمد ويسلم بصحة القضايا الرياضية وبقانون حفظ المادة وبمبدأ السببية العام وبمبدأ التفاعل بين أجزاء المادة.

لقد كانت هذه المبادئ ضرورية لوجود العلم بالذات ولكن لم يكن تفسيرها بواسطة التجربة لأن التجربة لا تفيدنا بما هو ضروري وكلي. ولذلك كان على كانط أن يفسر هذه العناصر القبلية والمبادئ الأساسية للمعرفة العلمية وهذا ما يتناوله كانط في الإدراك الحسي الترس تدالي في نقد العقل الخالص فيسأل: كيف يمكن أن تكون القضايا التركيبية القبلية ممكنة في الرياضيات؟ وكيف يمكن أن تكون القضايا التركيبية القبلية ممكنة في العلم الطبيعي؟ (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، صفحة 274).

تتميز قضايا العلوم الرياضية والطبيعية بالضرورة والقبلية اللتين لا يمكن أن تستمد من التجربة، ولذلك فلا بد أن ترتدا إلى التركيب العام لملكة المعرفة القبلية عندنا لأنه إذا كانت القضية مستمدة من التجربة فلا يمكن أن تكون قبلية لأنها تفتقر إلى الضرورة والكلية، وإذا كانت ضرورية وكلية فلا يمكن أن تكون اختيارية، وعليه إذا أردنا أن نحصل على قضايا تركيبية وقبلية في آن واحد فإنه ينبغي أن نربط هذه القضايا بالإدراك على نحو ما بحيث تتضمن عنصرا إدراكيا وآخر قبلياً في وقت واحد.

وقد رأى كانط أن ذلك يتم بواسطة الشروط العامة للإدراك وهي: المكان space والزمان time لأن كل ما يدرك في المكان أو الزمان ينبغي أن يكون مطابقاً لمبادئ معينة، وهذه المبادئ هي الشروط الضرورية للتجربة، فهي قبلية فمثلاً كل ما تدركه الحواس يدرك في المكان الإقليدي، ولذلك فإن بديهيات ونظريات الهندسة الإقليدية ينبغي أن تصدق على كل مواد التجربة الخارجية وكذلك إن كل ما نختبره يكون في الزمان، وإن كل ما يكون في الزمان له سبب وعليه فمبدأ السببية ينبغي أن يصدق على كل مواد التجربة الخارجية والداخلية على حد سواء.

وهكذا تكون هذه المبادئ تركيبية synthetic من جهة لأنها مرتبطة بالتجربة وقبلية apriori من جهة أخرى، لأنها شروط ضرورية وكلية للتجربة البشرية، فالزمان والمكان هما صورتان الخالصتان للحساسية، وهما المبادئ الأساسية للمعرفة القبلية (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، الصفحات 274-275).

2. التحليلات المتعالية:

التحليلات هي تقسيم كل معرفة لنا القبلية إلى العناصر التي تتألف منها المعرفة المحضة للذهن وفي هذا المجال يجب الانتباه إلى النقاط التالية:

- أنتكونا لتصورات تصورات محضة وليست تجريبية.
 - أنتتميز بالحدس والحساسية بل بالالفكر والذهن.
 - أنتكونا لتصورات أولية متميزة تماماً عن التصورات المشتقة أو منتقلة المولفة منها.
 - أنتكونا لوحدها كاملة وأنتم لعلك لميدانالذهنالمحض.
- والبحثنفيذا ينقسم إلى بين:
- تحليلات لتصورات.
 - تحليلات لمبادئ.
- ويقصد من تحليلات التصورات تقسيم قدرة العقل للتعرف إما كانا التصورات القبلية، وذلك بعملية عمادها البحث عنها فيالذهنوحده، وكانهم موطن ميلادها وتحليلها للاستعمال المحض للذهن بوجه عام (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، صفحة 276).

ولو صرفنا النظر عن مضمون الحكم بوجه عام ونظرنا فقط في شكل الذهن فسنجد أن وظيفة الفكر في هذا الحكم يمكن أن ترجع إلى أربعة أقسام وكل واحد منها يتألف من ثلاث لحظات على النحو التالي:

الجدول 1: جدول الأحكام

| 4 | 3 | 2 | 1 |
|---------|---------|----------|------|
| الجهة | الإضافة | الكيف | الكم |
| احتمالي | حملي | موجب | كلي |
| تقريري | شرطي | سالب | جزئي |
| ضروري | شرطي | لا محدود | مفرد |

المصدر: عبد الرحمان بدوي، 1984، 276.

هذا الجدول يستنفذ كل الأحكام التي يستطيع الفهم أن يصدرها على الأشياء، فإن كل نوع من هذه الأحكام ينطوي على مقولة قبلية يتم بواسطتها تركيب عناصر الحكم. ولذلك فمن جدول الأحكام نستطيع أن نستخلص جدولاً لكل المفاهيم الخالصة للفهم أو (المقولات) التي يمكن تطبيقها على الأجسام:

الجدول 2: جدول المقولات

| 4 | 3 | 2 | 1 |
|---------|---------------|---------|--------|
| الجهة | الإضافة | الكيف | الكم |
| الإمكان | الجوهر والعرض | الواقع | الوحدة |
| الوجود | العلة والمعول | السلب | الكثرة |
| الضرورة | التبادل | التحديد | الشمول |

المصدر: عبد الرحمان بدوي، 1984، 276.

وبواسطة هذه المقولات وحدها يستطيع الذهن (الفهم) أن يدرك الحدوس المتعددة، التي تستلمها الحساسة عندنا مرتبة في المكان والزمان على أنها أجسام، وحين يضع الفهم الحدوس تحت مقولة واحدة أو أكثر يؤلف منها أجساماً وعندئذ يعرفها. فالاستعانة بالمقولات يقوم الفهم بتركيب وتوحيد ادراكات التجربة الحسية التي ندركها تحت صور المكان والزمان ويحولها من كونها سيلاً من الإحساسات إلى عالم منظم معقول من الأجسام المترابطة (بدوي، الموسوعة الفلسفية، 1984، صفحة 276).

كيف يبرهن كانط على المقولات؟

- فالاستنباط الميتافيزيقي للمقولات يقرر أن هذه التصورات ليست مستمدة من التجربة ولا من

الذهن المنطقي، بل مصدرها القبلي.

ولكي تنطبق المقولات على الظواهر لا بد من وسيط هو الخيال أو ملكة المخيلة فيقول إن المخيلة هي الوساطة بين الحساسة والفهم، لأنها من جهة حسية ماداً متصور التي تمدنا بها في المكان والزمان دائماً. ومن جهة أخرى تلقائية وإبداعية، أعني أنها تستطيع بطريقة أولية مطابقة للمقولات أن تبعد رسوماً تخطيطية schémes أو رموز يمكن أن تنتظم تحتها الحدوس الحسية. ويضرب كانط مثال لذلك فيقول إننا لا نستطيع أن نفكر في الدائرة دون أن نرسمها في أذهاننا كما أننا لا نستطيع أن نفكر في الكم دون أن نتصوره باعتباره عدداً، ومعنى هذا أن المخيلة تفرض على الحدس (أو العيان) الحسي عملاً أولياً هو عبارة عن عملية تنظيم أو تأليف رمزي (تشبيهي) يكون بمثابة تمهيد للتأليف الذهني الذي ستحققه المقولات (زكريا، 1987، صفحة 14).

ثانيا: الديالكتيك المتعالي

وفيه يفحص عن الأحكام التركيبية القبلية في الميتافيزيقا. لقد رأى أن الوضع ها هنا هو على عكس ما هو في الرياضيات والفيزياء. ذلك أن الميتافيزيقا تقطع نفسها عن التجربة الحسية بمحاولتها تجاوزها ولهذا السبب تعجز عن الوصول إلى حكم تركيبى قبلي حقيقي.

الديالكتيك المتعالي اختبر جميع الاستدلالات التي تحاول بها أن تثبت موضوعية أفكار العقل هذه، وفحصها واحدا واحدا، وأذابتها واحدا واحدا، فأبانت أن اسنادنا هذه الأفكار إلى الموجودات وهم محض.

لكن هذه النتيجة السلبية التي تقتصر عليها أحيانا نتيجة نقد العقل الخالص هل هي بالفعل ما يشتق منه؟ كلا إن عمل كانط ايجابي أيضا ويجمل أن نتناول هذه النقطة بشيء من الايضاح (بوترو، 1972، صفحة 277).

1. نقائص العقل المحض:

النقيضة antinomy زوج من القضايا يبدو بوضوح أن الأولى تناقض الثانية ولكن يمكن تقديم برهان صحيح محكم من الناحية الصورية على كليهما؛ يسمي كانط إحدى القضيتين «موضوعا» thesis والقضية المتناقضة معها «نقيض القضية» antithesis ولما كان المنطق يقتضي أن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معا ولا تكذبان، فإن العقل يقع في صراع مع نفسه حين يرى أن من الممكن أن نقدم برهانا صحيحا من الناحية المنطقية على الموضوع ونقيضه في وقت واحد، ذلك أن الموقف هو ما يسميه كانط «نقيضة العقل الخالص» ويصنف كانط نقائص العقل الخالص في أربعة نذكرها:

1.1 النقيضة الأولى: النهاية واللانهاية.

الموضوع

للعالم بداية في الزمان وحد في المكان.

لأنه لو لم يكن للعالم بداية في الزمان فلا بد من الإقرار بأن اللحظة الحاضرة قد سبقتها سلسلة لا متناهية من الظواهر قد تمت الآن. لكن من التناقض أن تنتهي سلسلة لا متناهية في لحظة معلومة.

وكذلك إذا كان المكان لا متناهيا فإنه لما كان المكان ليس إلا التركيب المتتالي لأجزائه فلا بد من زمان لا متناه لإنجاز هذا التركيب، وحينئذ نقع من جديد في نفس الصعوبة التي لقيناها بالنسبة إلى الزمان اللامتناهي.

نقيض الموضوع:

ليس للعالم بداية في الزمان ولا حد في المكان، إنه لا متناه في الزمان وفي المكان على السواء.

لأننا لو سلمنا بأنه كان للعالم بداية، فلا بد من التسليم بزمان خاوي قبل ظهوره؛ لكن في الزمان الخاوي لا يمكن أن يولد شيء لأنه لا جزء من هذا الزمان يحتوي أولى من غيره على سبب يعين وجوده. وفي العالم أشياء تبدأ، لكن العالم نفسه لا يمكن أن تكون له بداية.

وبالمثل، فإن عالما متناهيا في المكان سيكون محدودا بمكان خاوي، أعني بعدم محض، لأن المكان خارج الظواهر ليس بشيء. إن في المكان حدوداً، لكن المكان نفسه لا محدود (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 227).

2.1 النقيضة الثانية: البساطة والتركيب

الموضوع:

كل جوهر مركب هو مركب من أجزاء بسيطة ولا يوجد شيء ليس بسيطا أو مركبا من أجزاء بسيطة.

ذلك لأن التركيب معناه علاقة عرضية

وعرض يطرأ على الجواهر التي يمكنها أن تبقى إذا فصلناها. ولهذا يمكننا إذن أن نقضي- في الذهن - على كل تركيب. فلنفترض الآن أن الجواهر المركبة ليست مؤلفة من أجزاء بسيطة، وذلك بأن نقضي- في الذهن- على كل تركيب، فهناك لن يبقى شيء فالجوهر المركب يزول إذن إذا لم نُسلم بأن التركيب الموجود فيه حداً وأنه مؤلف من أجزاء بسيطة ولما كان كل ما ليس بسيطاً فهو مركب فيجب التسليم بأن كل شيء في الطبيعة إما بسيط أو مركب من وسائط.

نقيض الموضوع:

لا مركب هو مؤلف من أجزاء بسيطة، ولا يوجد شيء بسيط في العالم. كل جوهر يوجد بالضرورة في المكان، وكذلك كل جزء من أجزائه، وهذه الأجزاء قابلة للقسمة بالضرورة مثل المكان الذي تشغله، فهي إذن ليست بسيطة. أما أن نميز مع ليبنتز بين النقطة الفيزيائية والنقطة الرياضية التي ليست إلا حد المكان فهذا تحليل يبين النقد عدم جدواه لأن النقطة الفيزيائية إذا كانت واقعية حقيقية فيجب أن تخضع شأنها شأن كل حقيقة قابلة للإدراك للشرط المشترك بين كل الظواهر وهو أن تدرك في عيان المكان (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 231).

3.1 النقيضة الثالثة: الحرية والجبرية

الموضوع:

العلية المطابقة لقوانين الطبيعة ليست الوحيدة التي يمكن أن تشتق منها ظواهر العالم ولا بد من التسليم بعلية حرة من أجل تفسيرها.

لنفرض أن كل ما في العالم يحدث وفقاً لقوانين ضرورية فإنه ينتج عن هذا الظاهرة التي لا يمكن أن تعد معينة تعينا تاماً لأن شرطها السابق يفترض شرط أسبق وهكذا إلى غير نهاية فلا نصل إذن إلى تعيين تام يقتضيه القانون الطبيعي ولا بد إذن من أجل انطباق هذا القانون أن تكون سلسلة العلة التامة منتهية وأن يبدأ بعلة ليست في حاجة إلى أي تعيين أي علة حرة.

نقيض الموضوع:

لا حرية وكل ما يحدث في العالم فقط وفقاً لقوانين طبيعية. لنفرض أن ثم علية حرة قادرة على أن تبدأ بنفسها سلسلة من الأفعال المشتقة، إننا بهذا ندخل عدم الإحكام في الطبيعة ونحطم وحدة التجربة التي تقتضي أن ترتبط كل الظواهر فيما بينها دون أية ثغرة بعلاقة المقدمات والتوالي فيجب إذن الاقتصار على الضرورة انطباق هذا القانون أن تكون سلسلة العلة التامة منتهية وأن يبدأ بعلة ليست في حاجة إلى أي تعيين أي علة حرة (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 237).

4.1 النقيضة الرابعة: الكائن الضروري

الموضوع:

يوجد في العالم موجود واجب الوجود هو إما جزء منه أو علة له. لو لم يكن في العالم شيء ضروري أبداً لما أمكن تفسير التغيير نفسه، لأن كل تغير هو الناتج الضروري لبعض الشروط ويفترض إذن سلسلة كاملة من الشروط حتى اللامشروط المطلق الذي هو وحده الضروري (الواجب) وهذا الموجود الضروري (الواجب الموجود) يجب إذن أن يكون في العالم، وإلا لو استطع أن يعين الممكن الذي لا معنى له إلا بالنسبة إليه.

نقيض الموضوع:

لا يوجد موجود واجب الوجود لا في العالم ولا خارج العالم، يكون علة لهذا العالم. لو كان في العالم موجود واجب الوجود هو جزء منه فإنه سيكسر سلسلة الظواهر المحكمة التعيين ولو كانت السلسلة كلها هي الواجب الوجود، فلا يمكن أن نتصور أن مجموعاً من الأجزاء الممكنة هو واجب (ضروري)، ولو كان الواجب الوجود خارج العالم فإنه متى بدأ هذا الموجود في الفعل فإنه يقبل في ذاته بداية، فهو إذن في الزمان في العالم وهذا يضاد الفرض (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 239).

2. حل المتناقضات:

قد يبدو لنا _ لأول وهلة_ أن نقائض العقل النظري ليست سوى مجرلهوها العقل البشري، ولكن كانط يعلم تمام العلم بأن وراء هذه «الصيغالجامدة» إنما تكمن جميع إشكالات الميتافيزيقا بما فيها من خطورة، وجدية، وأهمية، والمهم أن كانط لم يترك هذه المتناقضات دون شرح أو توضيح، بل هو قد حاول أن يسلط عليها الكثير من الأضواء النقدية الهامة. ولاحظ كانط (أول ما لاحظ) أن النقائض أقرب إلى موقف الفلسفة التجريبية الخالصة، في حين أن القضايا تنطوي على قيمة عملية لأنها تبرهن على صحة الأفكار الأساسية للأخلاق والدين، كفكرة النفس، وفكرة الألوهية. نجد أن النقائض لا تحتوي على أية فائدة عملية مادامت الأخلاق لا تستطيع أن تكسب شيئاً من التجربة أو العلم. هذا لا يعني أن القضايا لا تنطوي على أية نظرية، فإن العقل البشري يميل إلى التوقف في سلسلة الشروط حيث يصل إلى اللامشروط الذي يركن إليه ويعتبره دعامة لكل ما عداه.

بيد أن كانط يعود فيقرر أنه وإن كان الفلاسفة القائلون بالنقائض هم أقرب إلى فهم طبيعة التجربة الإنسانية وحدود العقل البشري، ومن الفلاسفة القائلين بالقضايا إلا أن أصحاب النزعة التجريبية أنفسهم انحرفوا عن مجال المعرفة الكامنة في نطاق الظواهر، فأصدروا أحكاماً هي بطبيعتها خارجة عن نطاق التجربة، ومن ثم فقد أصبحوا هم الآخرون فلاسفة اعتقاديين يقرون بما لا يعلمون. ومن هنا فإن كانط قد دعا إلى رفض موقف أبيقور (زعيم التجريبيين) وأفلاطون (زعيم الاعتقاديين) على أساس أن كلاهما قد أكد أكثر مما يعلم (كانط، نقد العقل المحض، 1988، الصفحات 238-239). ولكن هل يكون معنى هذا أن كانط قد انتهى- في خاتمة المطاف- إلى القول بنزعة شكية ترفض العلم وتكذب شهادة العقل؟ وبعبارة أصح هل يكون في تناقض الأفكار ما يدعوننا إلى اعتناق موقف بيرون، بحيث يكون «الارتياب» هو الكلمة الأخيرة للفلسفة النقدية؟

يبدو لنا أن كانط قد أجاب على هذا التساؤل إجابة واضحة صريحة حينما بين لنا أن نقائض العقل الخالص ليست نهائية حاسمة، وأنه لا بد للفيلسوف من أن يعمد إلى حلها بوجه ما من الوجوه. فالفلسفة النقدية لا تؤمن بأن العقل عابث بل هي تؤكد أن كل ما هنالك هو أن ثمة «عدم تناسب» بين الفهم والعقل، ولا ريب أن الفهم محق حين يلتزم حدود التجربة وحين يأبى أن يتجاوز دائرة الحدس الحسي، ولكن العقل نزاع بطبيعته نحو تكملة سلسلة الشروط لأنه يترسم نوعاً آخر من الوجود غير الوجود الحسي (الذي لا يعرف سواه الفهم) فلا غرو أن نراه يحيل مجموع الشروط إلى «فكرة» محاولاً تجاوز العالم المحسوس نحو «العالم المعقول». ولا سبيل إلى تخليص العقل من أوهام علم الكون النظري، اللهم إلا بأن نبين له أن سائر الأفكار التي يتشبه بها إنما هي من خلق الفكر البشري نفسه، دون أن يكون لها مقابل واقعي في الطبيعة «الحقيقة المعقولة» أو «الشيء في ذاته». ويضرب كانط مثالاً لذلك بالتناقضين الأول والثاني- وتسميان بالتناقضين الرياضيين- فيقول إنه لا بد من رفض القضية الأولى ونقيضها، والقضية الثانية ونقيضها لأن كل منهما تنظر إلى العالم والمادة على أنهما شيئان قائمان في ذاتهما لا على أنهما مجرد مجاميع من الظواهر. في

حين أن كلا من العالم والمادة ليسا إلا مجرد «فكرة» لا شيء في ذاته. والواقع أن العالم لا يمكن أن يكون موضوعاً لأي عيان حسي ما دامت حدودنا متوالية في الزمان، وبالتالي عاجزة عن استيعاب جملة العالم باعتباره شيئاً في ذاته (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 237).

وكذلك الحال بالنسبة إلى فكرة «البسيط» فإن هذه الفكرة ليست موضوعاً لأي حدس من الحدوس، ما دام البسيط لا يبدو لنا إلا في مكان قابل للقسم. وإذن فليس في وسعنا أن نقول عن العالم باعتباره شيئاً في ذاته، لا لأنه متناه أو لا متناه ولا لأنه مركب من أجزاء بسيطة أو قابل للقسم ما إلى لا نهاية.

وأما فيما يتعلق بالتناقضين الثالث والرابع (ويسيمهما كانط التناقضين الديناميكيين)، فإنه من الممكن أن تكون القضيتان ونقيضتهما صادقة جميعها على السواء، ولكن بشرط أن نفهم القضيتين من وجهة نظر الأشياء في ذاتها ونقيضتهما من وجهة نظر الظواهر، ومعنى هذا أننا نستطيع أن نسلم وجود عليّة حرة لتفسير الظواهر، وموجود ضروري يتعلق به العالم المحسوس، ولكن على شرط أن ننظر إلى سلسلة العلل وإلى مجموع الظواهر الحادثة من وجهة نظر العالم المعقول أو عالم «الشيء في ذاته».

الموضوعات لها فائدة عملية وقد قال بها في الغالب الميتافيزيقيون الدوجماتيقيون، إذ هي تتصل بأرائهم في النفس، والحرية، وإثبات الله، أما نقائص الموضوعات فلها فائدة نظرية خصوصاً وميزتها أنها تبقي العقل في ميدان التجربة، ومن هنا قال بها التجريبيون لكن ليست لها فائدة عملية.

يقول كانط عن مزايا الموضوعات thèses بالنسبة إلى أصحاب النزعة الدوجماتيكية هي:

- هناك فائدة عملية يسعى إليها طواعية كل إنسان عاقل يفهم مصطلحه الحقيقية. فإن يكون للعالم بداية، وأن تكون ذاتي المفكرة من طبيعة بسيطة ومن ثم غير فاسدة (خالدة)، وأنها في الوقت نفسه حرة في أفعالها الإرادية وفوق قسر الطبيعة، وأن النظام الكلي للأشياء التي تؤلف العالم مستمد من موجود أول يستمد منه كل شيء وحدته وارتباطه من أجل غايات (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 245).

- ثم أيضاً فائدة نظرية للعقل، ذلك أن بالإقرار بالأفكار المتعالية وباستخدامها على هذا النحو فإننا نستطيع أن نحيط إحاطة تامة وقبلية بالسلسلة التامة للشروط، وأن ندرك اشتقاق المشروط لأننا نبدأ من اللامشروط؛ وهذا أمر لا تسمح به نقائص الموضوعات، ومن مساوئها أنها لا تستطيع الإجابة عن السؤال الخاص بشروط تركيباتها، الإجابة التي تعطينا من الاستمرار في التساؤل إلى غير نهاية، فإنه بحسب النقيضة antithésise يجب أن نصعد من بداية معلومة إلى أخرى أعلى منها وكل جزء يقود إلى جزء أصغر منه، وكل حادث له علة هي حادث آخر فوقه، وشروط الوجود بوجه عام تستند دائماً ومن جديد على شروط أخرى دون أن توجد أبداً في شيء موجود بذاته، بوصفه الموجود الأول سنندا لا مشروطاً (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 246).

- ثم ميزة هي الشعبية وهي ليست أقل مزاياه. ذلك أن الإدراك العام لا يجد أي صعوبة في فكرة بداية غير مشروطة لكل تركيب، لأنه أكثر اعتياداً على النزول إلى النتائج منه على الصعود إلى المبادئ، وتصورات الموجود الأول تبدو له ميسورة وتزوده في نفس الوقت بنقطة ثابتة يربط فيها الخيط الذي يقود خطواته، بينما على العكس لو أنه تصاعد دائماً من المشروط إلى الشرط فستكون إحدى قدميه في الهواء، ولن يستطيع أبداً أن يشعر بالارتياح.

وبالنسبة إلى أصحاب النزعة التجريبية في تحديد الأفكار الكوسمولوجية أو من جانب نقيضة الموضوع فإنه: أولاً: لن يجد أية فائدة عملية ناتجة عن مبادئ محضة للعقل، مثل تلك التي تنطوي عليها الأخلاق والدين. والتجريبية تبدو- على العكس- إنها تسلب الأخلاق والدين كل قوة وكل تأثير. ذلك أنه إذا لم يوجد موجود أول متميز من العالم، وإذا لم تكن للعالم بداية، وبالتالي إذا لم يكن له خالق، وإذا كانت إرادتنا غير حرة وإذا كانت النفس قابلة للانقسام وفسادة مثل المادة، فإن الأفكار الأخلاقية ومبادئها تفقد كل قيمة وتنهار مع الأفكار

المتعالية التي تؤلف إسنادها النظرية، وفي مقابل ذلك فإن التجريبية تقدم للاهتمام النظري للعقل مزايا شديدة الإغراء تتجاوز كثيرا تلك المزايا التي يمكن أن يعد بها العالم الدوجماتيقي من الأفكار العقلية. وعنده أن الذهن يجول دائما في ميدانه الخاص، أعني في ميدان التجارب الممكنة ويمكنه أن يبحث عن قوانينها ويوسع بفضلها معارفه الوثيقة البيئة إلى غير نهاية (كانط، نقد العقل المحض، 1988، صفحة 247).

3. هل الميتافيزيقا كعلم ممكنة؟

يعتبر كانط نقد العقل الخالص كله بمثابة الإجابة عن هذا السؤال ولكي يجيب كانط على هذا السؤال مهد له بضرورة الإجابة عن أسئلة أخرى. بدأ بالسؤال: كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة؟ ثم أن هذا السؤال الأخير يمكن أن ينحل إلى ثلاثة أسئلة أخرى هي: «كيف تكون العلوم الرياضية البحتة ممكنة؟» و«كيف يكون العلم الطبيعي النظري ممكنا؟» و«كيف تكون الميتافيزيقا ممكنة؟» وأجاب كانط عن السؤال المتعلق بالميتافيزيقا في باب «الجدل الترسندنتالي»، إذن بحث في إمكان قيام الميتافيزيقا كعلم ولم يفرد كانط فصلا خاصا لتوضيح موقفه من الجواب (زيدان، 1979، صفحة 328).

ولقد اشتغل كانط بالميتافيزيقا فترة طويلة من حياته وهو يعترف بصعوبة الدراسات الميتافيزيقية فيشبه الميتافيزيقا بمحيط مظلم ليس له شاطئ ولا فناء طالما تحطمت بين أمواجه نظم فلسفية كثيرة، ويقول: لقد شاء لي حسن الحظ أن أعشق الميتافيزيقا ولكن معشوقتي لم تطلعي حتى الآن إلا على قليل من مفاتها.

ويتألف المنهج الميتافيزيقي عند كانط من ناحيتين أساسيتين:

- ناحية سلبية.

- ناحية إيجابية.

وتتمثل الناحية السلبية في موقفه من الميتافيزيقا التقليدية حيث أثبت فشلها الذريع في جميع

الميادين (زيدان، 1979، صفحة 328).

وأما من الناحية الإيجابية فكانت يثبت أن للميتافيزيقا دورا جديداً مختلفا تماما عن دورها التقليدي. والدور الجديد هو أن تقوم الميتافيزيقا بوظيفة النقد الموضوعي للاتجاهات الفلسفية المختلفة، فهو يلغي الميتافيزيقا القديمة ويهدم طريقها التقليدية ليقيم على أنقاضها ميتافيزيقيا نقدية جديدة تجعل العقل المشرع للأشياء. وبهذا يصبح نقد العقل مدخل إلى الميتافيزيقا الصحيحة التي ينبغي أن تقوم في المستقبل، وقد حرص على أن يفرق بين نوعين من الميتافيزيقا: الميتافيزيقا «المفارقة» أو «البائنة» أو المتعالية التي تقيم بنائها كله خارج التجربة مجاوزة به عالم الأعيان، وميتافيزيقا باطنة أو كامنة ويسمها الميتافيزيقا النقدية أو الترسندنتالية وهي التي تحدد الصور والمقولات «الأولانية» التي هي الشرائط الضرورية للتجربة الإنسانية (سالم، 1986، صفحة 427).

لم يستطع الميتافيزيقيون عبر الأجيال أن يجعلوا من الأبحاث الميتافيزيقية علما له منهجه المحدد وموضوعاته المتميزة وما ينطوي على نتائج متفق عليها بحيث تكون مقدمات لبحث أجيال تالية يطورونها ويصلون إلى نتائج أخرى، وهكذا نجد الميتافيزيقيين مختلفين على منهج البحث في عملهم وعلى موضوعاته وكل ما يصلون إليه من نتائج يتضارب بعضها مع بعض لحل ظاهرة تضارب نتائج الميتافيزيقيين وحلولهم المتناقضة لمشكلة معينة ميتافيزيقية راجع إن أنهم لم يبدؤوا بوضع منهج لعملهم ولم يحددوا مجال بحثهم فلم يكن للبحث الميتافيزيقي منهج محدد واضح كما أنه لم يكن للميتافيزيقا موضوعات محددة، ولم تكن هنالك حدود فاصلة بين الميتافيزيقا والعلوم الأخرى، فلقد خلط الفلاسفة مثلا بين الجانب التجريبي والجانب

العقلي من معرفتنا، فمثلا كانت تتناول الميتافيزيقا مسائل نعتبرها في القرن من صميم الفيزياء والكيمياء مثل ما يتعلق بالامتداد والجسم والأجسام الصلبة والسائلة مع أنها كانت تدخل ضمن مباحث الميتافيزيقا قديما. قبل تحديد موضوعات الميتافيزيقا لابد من منهج. حين نادى كانط بأنه لم يكن للميتافيزيقا السابقة

منهج محدد لم يكن يشير إلى المنطق، ولم يكن يشير إلى أن الفلاسفة كانوا يستخدمون الاستنباط أو الملاحظات والتعميمات الاستقرائية، وإنما كان يشير إلى نقطة بداية يسميها كانط نقطة منهجية (نقطة بداية الميتافيزيقا) هي ضرورة البداية بتعيين حدود العقل الخالص- أداة معرفتنا القبلية التي لا تحوي أي عنصر تجريبي- وماذا يحوي من عناصر وما حدود معرفته وإمكانياته، يعلن كانط بوضوح أن كتاب «نقد العقل الخالص» هو تعيين هذا المنهج ومن ثم المنهج و«نقد» critician مترادفان. البحث في المنهج بحث في العقل الإنساني في جانبه العقلي، حصر التصورات القبلية التي ترتبط بمعرفتنا التجريبية بالإجمال، أي الأساس القبلي الذي هو ضروري لإقامة أي معرفة: هذا هو المنهج الكانطي أو نقول المنهج الكوبرنيقي. يحتل المنهج كل نقد العقل الخالص أو على الأقل باب «الإستطيقا» و«التحليل».

بعد المنهج يأتي الموضوع، فمن البديهي أن تكون النظريات الميتافيزيقية موضوع الميتافيزيقا. لقد حصر كانط تلك النظريات على كثرتها وتباينها في موضوعين أساسيين يسميها «الطبيعة والحرية» وأقام كانط هذه القسمة الثنائية على أساس أن لعقلنا الخالص وظيفتين: نظرية وعملية، والمقصود بالوظيفة النظرية الاستخدام البرهاني للعقل واستخدامه الاستدلالي بوجه خاص، وبالوظيفة العملية للعقل لا توجهه نحو أمور الحياة اليومية وإنما الجانب العقلي من عقلنا الذي يهتم بوضع أسس الأخلاق. ومن ثم يمكننا القول بأن الموضوعين الأساسيين للميتافيزيقا هما ميتافيزيقا الطبيعة وهي البحث في كل ما يوجد أو ما يمكن أن يوجد، وميتافيزيقا الأخلاق وهي البحث فيما ينبغي أن يكون بالقياس إلى ما نسميه السلوك الخلقى (زيدان، 1979، الصفحات 341-342).

والآن ننظر إلى كتاب «نقد العقل الخالص» لنرى إن كان كتابا في الميتافيزيقا أم أنه إعداد لها. الكتاب وكما ذكرنا سابقا يتألف من ثلاثة أجزاء رئيسية: الإستطيقا والتحليل والجدل. يتناول الجزء الأول في أساسه معرفتنا للمكان والزمن وطبيعتهما، وهذه أحد مباحث الميتافيزيقا. وقد كان الدافع الرئيسي لمبحث الإستطيقا إنما هو الإجابة على السؤال: هل الرياضيات البحتة ممكنة؟ وجعل الجواب عن هذا السؤال تمهيدا للإجابة عن السؤال الأساسي: هل الميتافيزيقا كعلم ممكنة؟ تناولت أيضا الإستطيقا موضوع اليقين والضرورة في القضايا الرياضية. تناولت مبحث الإستطيقا إذن موضوعات ميتافيزيقية بالمعنى الدقيق، بالإضافة إلى موضوعات أخرى رياضية ومنطقية وابتيمولوجية.

تناول باب التحليل الترنسندنتالي منهج الميتافيزيقا المقترح بالمعنى الذي فهمه كانط، وهو بحث في التصورات القبلية والمبادئ المشتقة والمتعلقة بالعالم المحسوس، وموضوعات أخرى كالبرهان على وجود هذا العالم. باب التحليل إذن باب في نظرية المعرفة من حيث هو مبحث في المقولات؛ وهو كذلك باب في الكوسمولوجيا، وهذه أحد فروع الميتافيزيقا إنه باب في الكوزمولوجيا من حيث هو مبحث في المبادئ القبلية التي يخضع لها العالم الطبيعي كالجوهر والعلية والضرورة والإمكان ... الخ. باب التحليل هو أيضا باب في الأنطولوجيا من حيث هو مبحث في وجود العالم اللامحسوس. نستنتج مما تقدم أن بابي الإستطيقا والتحليل بابان في نظرية المعرفة وفي الميتافيزيقا إنهما يضمنان منهجا جديدا للبحث الميتافيزيقي، كما يضمنان نظريات ميتافيزيقية بالمعنى الدقيق، وليس فقط مجرد أعداد وتمهيد لتلك النظريات(زيدان، 1979، صفحة 345).

أما باب الجدل ولعله بيت القصيد من كتابه نقد العقل الخالص، يجيب كانط فيه عن سؤاله الرئيسي وهو: «كيف تكون الميتافيزيقا ممكنة؟» فإذا عرفنا أن الإجابة عن هذا السؤال هو مشكلة كانط الرئيسية أمكننا أن نقول إن بابي الإستطيقا والتحليل ليسا سوى مدخل أو تقديم إلى الباب الثالث.

لم يسجل كانط في باب الجدل كل جوابه عن سؤاله الرئيسي وإنما يمهّد الطريق فقط للجواب في هذا الباب. يسجل كانط في هذا الجدل ما يعوق إمكان الميتافيزيقا أن تكون علماً. يعرض الجدل الجانب السلبي من الجواب، وبهذا المعنى يصدق قول كانط أن كتاب «نقد العقل الخالص» إعداد لإقامة إمكان الميتافيزيقا لا إقامتها فعلاً.

موضوع باب الجدل هو ميتافيزيقا الطبيعة، أي تتناول البحث فيما هو موجود أو ما يمكن أن يوجد سواء كان محسوساً أو معقولاً، وسواء كان في إطار خبرتنا الإنسانية أو ما تتعالى على هذه الخبرة. نادى كانط في الجدل بأن العقل الخالص في استخدامه النظري أي في وظيفته النظرية غير قادر على إثبات وجود ما يتعالى على خبرتنا الإنسانية، ومن ثم قرر كانط في باب الجدل أن الميتافيزيقا النظرية- أي التي تُثبت بالبرهان وجود كائنات أو معانٍ تفوق قدرتنا الحسية- مستحيلة كعلم، ويمكن أن نوجز مقدمات هذه النتيجة فيما يلي: نعم في العقل الإنساني ميل طبيعي أصيل للتفكير الميتافيزيقا، والمقصود أن عقلنا بطبيعته مثل بأسئلة تفرض نفسها عليه فرضاً لا يستطيع تجاهلها.

يغذي هذا الميل استعداد عقلنا الخالص بالمعنى الضيق لطرح هذه الأسئلة والتفكير فيها؛ والمقصود بالعقل الخالص بالمعنى الضيق هو قدرتنا على التحليق في المطلق. يعترف كانط أن لنا هذه القدرة، ولكنه ينكر أننا نستطيع عن طريق هذه القدرة أن نثبت وجود كائنات أو معانٍ تدل عليها تطابق ما نفكر فيه على هذا المستوى المطلق. يكتسب العقل الخالص نزوعه هذا نحو المطلق على أساس منطقي بحت وهو أننا ميالون حين نفكر في مقدمة عامة أن نبحث عن مقدمة أعم منها، وعن أخرى أكثر من هذه عمومية حتى تصل إلى مقدمة تقول عنها أنها أعم القضايا وتصبح قضية مطلقة. ويؤكد كانط أن التفكير في المطلق بهذا المعنى مجرد تعبير عن تسلسل العقل في أي سلسلة فكرية إلى طرفها الأول (زيدان، 1979، صفحة 349)، لكنه يؤكد أيضاً أننا نخطئ، بل ونرتكب جرماً إذا أسندنا إلى هذا الطرف الأول وجوداً واقعياً مطلقاً يشير إلى تلك الفكرة. بمعنى آخر المطلق مباح كطرف أول - كفكرة - أو نهاية سلسلة المقدمات العامة، ولكنه وهم حين نظن أننا بوصولنا إلى هذه القضايا العامة وصلنا أيضاً إلى البرهان على موجودات مطلقة. تلك الأفكار المطلقة التي بالعقل الخالص يسميها كانط أفكار ترنسندنتالية أو أفكار العقل الخالص، ويحصرها في ثلاثة أفكار أساسية. المقدمة الأولى التي نصل إليها في قياس من تسلسل فكرنا في المقدمة الكبرى لقياس حملي، ولقياس شرطي متصل ولقياس شرطي منفصل، نصل من ثم إلى تصور الجوهر، وتصور العلة الأولى لهذا الكون، وتصور الله أسمى الكائنات والعلل. يجد كانط أن هذه الأفكار الثلاثة المطلقة إنما توجد الموضوعات الميتافيزيقية، ما يتصل بالنفس والكوزمولوجيا والله. ويرى كانط أن الميتافيزيقيات السابقة بحثت في جوهرية النفس الإنسانية ووجود علة أولى للكون لا علة لها، ووجود الكائن الأسمى.

وبحث كانط بحثاً طويلاً فيما أسماه الأغاليط النفسية paralogisms ونقائض العقل المحض antinamies والمثل الأعلى للعقل الخالص the ideal of pure reason ووصل منه إلى أن العقل - وإن كان يصل من حيث المنطق إلى قضية تثبت موضوعاً لن يكون محمولاً ومن ثم جوهر - عاجز عن إثبات أن النفس الإنسانية جوهر، ومن ثم عاجز عن إثبات أن النفس بسيطة وخالدة. وصل ثانياً إلى أن العقل الخالص يجد نفسه في مأزق حين يجد نفسه قادراً على إثبات قضية ونقيضها في وقت واحد. وصل ثالثاً إلى أن لدينا فكرة عن كائن مطلق كطرف أول ينبغي بفضلها أن نفكر في علة أولى لكل سلسلة العلل والمعلولات القائمة في هذا العالم، وأن نفكر في مصدر أول تصدر عنه سلسلة الأشياء الحادثة contingent beings لكن هذه الفكرة لا تبيح لنا بمفردها أن تمكننا من البرهان على وجود الله. أبان كانط أيضاً أن أدلة الفلاسفة السابقين على وجود الله باطلة (زيدان، 1979، صفحة 348).

ذلك موقف كانط من باب الجدل الترنسندنتالي حين وضع لنفسه في أول الباب أن مشكلته هي إجابة السؤال: هي يمكن قيام الميتافيزيقا؟ أجاب بالنفي؛ أعلن أن العقل في جانبه النظري البرهاني عاجز عن إثبات جوهرية النفس ومن ثم بساطة هذا الجوهر وخلوده، عاجز عن تحديد موقفه من الأسئلة التي يطرحها العقل الخالص فيما يتعلق بأصل الكون ونشأته وحدوده، عاجز عن إثبات وجود الله. ومن ثم أعلن كانط أن الميتافيزيقا النظرية مستحيلة؛ إنما وهم وخداع، إنها ميتافيزيقيات كاذبة، بل ومتناقضة لأن الميتافيزيقا علم قبلي وكل ما هو قبلي يتضمن الضرورة المطلقة، ومن ثم ينبغي أن تكون القضايا الميتافيزيقية يقينية. لقد تبين لكانط من خلال رحلته الشاقة الطويلة في نقد العقل الخالص أن العقل البرهاني لا يستطيع أن يثبت وجود كائنات كالنفس والله إلى إعلانه أنه يجب أن نضع حداً لكل الميتافيزيقيات النظرية السابقة «السوفسطائية» «التوكيدية» «المدرسية» وذلك بفضل «منهجه النقدي» (زيدان، 1979، صفحة 348).

ii. خاتمة

يمكننا أن نذكر نتائج البحث مع الإشارة إلى بعض الآراء الفلسفية في مشروع كانط النقدي والتي أظهر العلم تهافتها.

أولاً: تنتهي رسالة نقد العقل الخالص، لكن لم تنته بعد رسالة كانط الفلسفية. تنتهي رسالة نقد العقل الخالص عند إثبات أن لدينا - إلى جانب تصوراتنا التجريبية وأفكارنا الحسية - تصورات قبلية وإثبات أن الوظيفة الوحيدة لهذه التصورات القبلية أن تألف عنصراً أساسياً لإدراكنا الحسي ، ولمعرفتنا العلمية للعالم التجريبي الذي نعيش فيه ، وإثبات أننا نصل إذا ما جعلنا وظيفة هذه التصورات القبلية أن تكون أساساً لبراهين على موضوعات ميتافيزيقية أصيلة فينا مثل: وجود الله وخلود النفس وحرية الإرادة الإنسانية. كل ميتافيزيقا تقوم على إثبات هذه الأمور على أساس برهاني بحث إنما هي عبث ولا جدوى منها. يقنع نقد العقل الخالص بالوصول إلى هذا الموقف.

هذا الموقف إنما هو منتصف الطريق عند كانط لا نهايته. وقد أشرنا إلى أن العقل الخالص - عند كانط- جانبيين: جانب نظري وجانب عملي؛ كان نقد العقل الخالص موضوع الجانب النظري، أي موضوع العقل البرهاني. أما الجانب العملي فالمقصود به الجانب المتعلق بمسائل الأخلاق كأن النصف الآخر من فلسفة كانط متعلق بالأخلاق ومع الأخلاق الدين.

ثانياً: كانط رأى الميتافيزيقا في هذا السياق بأنها العلم الذي يربط كل فروع المعرفة الإنسانية بالغايات الأساسية للعقل الإنساني، ويميز بعض هذه الغايات من بعضها الآخر. لكل علم غاية، للرياضيات البحتة غاية، وللفيزياء غاية، وللكيمياء غاية، والمنطق غاية. لكن ينظر كانط إلى هذه الغايات على أنها وسائل لغاية أساسية واحدة يسميها أسس الغايات وموضوع هذه الغاية الأولى إنما هو علم الأخلاق.

ولك أن تسأل هل أراد كانط أن يجعل علم الأخلاق هو الميتافيزيقا العلمية التي يسعى إليها؟ لا نجد جواباً حاسماً لكانط على هذا السؤال؛ يقول مرة أن السبيل الوحيد لإقامة الميتافيزيقا كعلم إنما هو إقامة ميتافيزيقا الأخلاق؛ لكنه يقول في مكان آخر إن إقامة علم الأخلاق لا يقيم الميتافيزيقا كعلم، لأن الأخلاق ليست ميتافيزيقيا لكنه يضيف أنه حيث أن علم الأخلاق يلي مطامح العقل العملي وحيث أن العقل الإنساني - في جانبه النظري والعملي معاً - يؤلفان وحدة متماسكة ولا ينفصلان، فليس هنالك ما يمنع من أن نعتبر مبحث الأخلاق جواباً عن استعدادنا الطبيعي للميتافيزيقا، لكن ماذا يقول كانط في ميتافيزيقا الأخلاق؟، فجواب هذا السؤال يخرج عن نطاق بحثي هذا، ولعلنا نجد إجابة كافية في بحث آخر. (نقد العقل العملي).

ثالثا: إنها قامت بتحويل العقل من خزان للأفكار الفطرية إلى قدرة مؤطرة تقوم بإضفاء الطابع التركيبي على المعرفة. وبهذا يتخذ العقل طابعا إيجابيا ديناميا فعلا غير ذلك الطابع السلبي القائم على حدس الطبايع البسيطة مثلما هو الشأن في العقلانية الديكارتية.

رابعا: بإضفاءها صبغة دينامية على العقل فقد قامت الفلسفة الكانطية بتحويل العقل من مجرد قبس أو نور من العقل الكلي كما يقول بذلك أفلاطون وديكارت إلى مجموعة معايير وقواعد تسمح بإمكان قيام التجربة، وإمكان قيام معرفة علمية بها، وبعبارة أخرى أصبح العقل نشاطا وفاعلية عقلية يتمثلان في إعادة بناء الواقع والتجربة.

خامسا: ونتج عن ذلك أن وظيفة العقل لم تعد مجرد وظيفة منطقية تقوم على التصنيف كما هو الأمر عند أرسطو، إنما تعقدت بنيته تعقيدا كبيرا بحيث أصبح متضمنا لقواعد وأنماط تركيب متنوعة غاية التنوع، وتضاعفت بذلك وظائفه. لقد أصبح العقل مجموعة من المبادئ والقواعد التي تستخدم تجريبيا، وعن طريقها يجد الحسي المتباين أطرا صورية قبلية تسمح بإضفاء صبغة الوحدة التركيبية عليه، وهي وحدها تمثل الشرط القبلي الأول لكل معرفة. أول الأطر الصورية وأكثرها التصاقا بالإحساس صورتا المكان والزمان.

الإحالات والمراجع:

المؤلفات:

- 1- إبراهيم زكريا. (1987). كانط أو الفلسفة النقدية. مصر: دار مصر للطباعة.
- 2- إميل بوترو. (1972). فلسفة كانط. ترجمة: عثمان أمين. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 3- إيمانويل كانط. (1967). مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما. ترجمة: نازلي إسماعيل. القاهرة، مصر: دار الكتاب العربي.
- 4- إيمانويل كانط. (1988). نقد العقل المحض. ترجمة: موسى وهبة. بيروت، لبنان: مركز الإنماء القومي.
- 5- إيمانويل كانط. (2009). أسس ميتافيزيقا الأخلاق. ترجمة: محمد فتحي الشنيطي. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.
- 6- بيتر كونزمان فرانز. (2007). أطلس الفلسفة. ترجمة: جورج كتورة. بيروت، لبنان: المكتبة الشرقية.
- 7- جيل دولوز. (1997). فلسفة كانط النقدية. ترجمة: أسامة الحاج. بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- 8- عبد الرحمان بدوي. (1977). إيمانويل كانط. الكويت: وكالة المطبوعات.
- 9- عبد الله إبراهيم. (1997). المركزية الغربية إشكالية الكون والتمركز حول الذات. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- 10- عثمان أمين. (1989). رواد المثالية في الفلسفة الغربية. القاهرة، مصر: دار الثقافة.
- 10- كرسوفر وانت وأندزجي كليموفسكي. (2002). أقدم لك كانط. ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- 11- محمد عزيز نظمي سالم. (1986). تاريخ الفلسفة. الإسكندرية، مصر: مؤسسة شباب الجامعة.
- 12- محمود زيدان. (1979). كانط وفلسفته النقدية. الإسكندرية، مصر: دار المعارف.
- 13- مصطفى النشار. (1998). مدخل جديد إلى الفلسفة. القاهرة، مصر: دار قباء للطباعة والنشر.

الموسوعات:

- 1- عبد الرحمان بدوي. (1984). الموسوعة الفلسفية. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

المقالات:

1- مراد الكديوي. (2020). سؤال النقد عند كانط: بين الدوافع الاستمولوجية والدوافع الدينية؟ دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية. العدد 10، ص 56-60.

2- حنان علي عواضة. (2012). الفلسفة النقدية لكانط طبيعتها وتطبيقاتها. مجلة الأستاذ للعلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد 1، العدد 203، ص 243.

المراجع باللغة الأجنبية:

1- Normand Lacharité. (1997) Lisons Kant. Canada : l'Université du Québec à Montréal.